بلاغة الدلالة في آية (..كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

دكتور/ ناصر دخيل الله فالح السعيدي

جامعة أم القرى- أستاذ البلاغة والنقد المساعد- قسم اللغة العربية

الكلية الجامعية بمحافظة الجموم- المملكة العربية السعودية

ملخص البحث:

تناول هذا البحث التركيب الدلالي، لقوله تعالى :(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)، وكشف عن بلاغة الدلالة في نسقها الخاص، وسياقها العام ،وما أحتواه التركيب من خصائص جمالية، بلغت بالدلالة منتهى الإعجاز في التركيز والإيجاز ، والمزاوجة والمجانسة، والمطابقة والمقابلة، والإيحاء والتورية، والمجاز والاستعارة، والتمثيل والتخييل .

بالإضافة إلى كثافة الدلالة، وغزارتها بالمعاني المتجدّدة المنبثقة من لغة النص الموحية بأسرار الكون، الدالّة على رحابة الفضاء، وكروية المجرات، وحركة الكواكب، والحياة الكونية، والنظام الفلكي، والدوران العكسي، وانعدام الجاذبية ونقص الأوكسجين في الفضاء الخارجي .

كل هذه الدلالات تم التوصل لها من خلال تركيبة النظم في الآية، وهي آية دالّة على الإعجاز العلمي، سبقت بها الفتوحات العملية الحديثة في مجال علم الفلك، كما هو مثبت في ثنايا البحث.

الكلمات الدّالة:لغة .. بلاغة ..دلالة .. معاني ..بيان.. بديع ..جناس ..قلب.. تركيب ..تفسير..إعجاز.. فلك..

Abstract:

Rhetoric of Signification in the Quranic verse:

"Each in an Orbit Floating"

"This research delves into the semantic structure of the divine saying: 'Each in an orbit floating,' uncovering the eloquence of signification in its unique composition, its broader context, and the aesthetic qualities contained in its structure. The signification within the structure reaches the pinnacle of miraculous eloquence, manifested through concentration and conciseness, Mating and homogeneity, similarity and equivalence, allusion and veiled suggestion, metaphor and figurative expression, representation and imaginative depiction".

"In addition to the density of signification, and its richness with renewed meanings emanating from the language of the divine text, revealing the secrets of the universe. Indicating the expansiveness of space, the spherical nature of galaxies, the movement of planets, cosmic life, the astronomical system, retrograde rotation, and the absence of gravity and oxygen in outer space".

"All these significations have been reached to through the composition structure of the verse, which stands as a testament to scientific miracles. It precedes modern practical discoveries in the field of astronomy, as substantiated within the folds of the research.

Keywords: Language, Eloquence, Signification, Harmony, Structure, Interpretation, Miraculous, Astronomy.

إضاءات البحث :

عنوان البحث : بلاغة الدلالة في آية (كل في فلك يسبحون).

نطاق البحث: التركيب الدلالي لقوله تعالى :(..كل في فلك يسبحون) .

موضوع البحث: البلاغة القرآنية .

مجال البحث: الدراسات النظرية ..الأدبيّة .. اللغة العربيّة ..الدراسات البلاغية .

علاقة البحث: القرآن العظيم معجزة بيانيّة علميّة ،ومن أسرار الإعجاز دراسة بلاغة القرآن .

دافع البحث: المساهمة في خدمة لغة القرآن العظيم.

أهمية البحث: تأكيد سبق لغة القرآن العظيم في اكتشاف حقائق الكون .

هدف البحث: الكشف عن أسرار جديدة في بلاغة الألفاظ ودلالات التراكيب في الآية.

منهج البحث: منهج وصفي ، يعتمد على التحليل البلاغي لعناصر اللغة وعلاقاتها .

محور البحث: بلاغة الآية في دلالاتها: المعجمية، والصوتية، والصرفية، والنحوية، والسياقية .

إشكال البحث: معظم البلاغيين ،وبعض المفسّرين الذين تناولوا بلاغة قوله تعالى (كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) ركّزوا على جناس القلب في البديع اللفظي ، ولم يستنطقوا النص دلالياً ، أو يربطوه بالسياق الخارجي ، ومن هنا انطلق البحث ،للكشف عن بعض الأسرار الجماليّة والكونيّة المستترة خلف اللغة الظاهرة.

مقدمة البحث:

قال تعالى :(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) هذه الجملة تكرّرت بلفظها في موضعين من القرآن العظيم، في سورة الأنبياء الآية(٣٣)، وفي سورة يس الآية (٤٠) ، وقد ورد تفسيرها في الكتب القديمة والحديثة ، ومع ذلك لا توجد دراسة مستقلة تتناول الإعجاز البلاغي في هذه الآية. ولا تتخطى الدراسات القديمة في هذا الموضوع أقوال المفسرين ، وعلماء اللغة ،وشرّاح البديعيات ، حتى أولئك الذين اعتنوا بالجانب البلاغي في تفسيرهم للقرآن الكريم ، كالزمخشري [١]، وفخر الدين الرازي [٢] ، والطاهر بن عاشور [٣]،وقفوا على الظواهر ،ولم يتعمّقوا في الدلائل باستثناء إشارات عابرة للأخيرين منهما في تفسيريهما،لكنهما لم يربطا بين الدّال البلاغي بالمدلول الكوني .

أمّا الدراسات الحديثة فهي محدودة في بعض المقالات ، كمقال الباحث الفلكي منصور العبّادي المعنون ب (كل في فلك يسبحون :الإعجاز العلمي)، وتناول نظريات علم الفلك دون ربط الحقيقة العلمية بالدلالة البلاغية للآية .. [٤]

وبما أن القرآن الكريم مليء بالأسرار، ويوماً بعد يوم تكتشف الفتوح العلمية الجديدة أسراراً دفينة في ثنايا هذا الكتاب الآلهي المعجز، تؤكد السبق القرآني الدلالي لمكتشفات العصر الحديث، بالإشارة إلى حقائق الكون الغيبيّة ودقائق التكوين البديعيّة، كان انعطاف البحث لسبر أغوار النص، وتركيبة النظم ، وعلاقته بالسياق ،وحمولاته الداخليّة، ودلالته الخارجية، مستعينا بالسياق، ودلالة الألفاظ والتراكيب، وفق منهج وصفي يعتمد على التحليل البلاغي للدلالات المحتملة، ودراستها من خلال المحاور التالية:

أولًا: دلالة النسق والسياق:

ثانيًا: دلالة التشكيل والتأويل:

ثالثًا: دلالة التمثيل والتخييل:

---

(١) ينظر : الزمخشري ، محمود بن عمر ، الكشّاف، الأنبياء (٣٣) ،يس (٤٠) .

(٢) ينظر: الرازي : فخر الدين ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، الأنبياء (٣٣) ،يس (٤٠) .

(٣) ينظر: ابن عاشور :محمّد الطاهر ، التحرير والتنوير ، الأنبياء (٣٣) ،يس (٤٠) .

(٤) ينظر : الموقع الالكتروني للجمعية الأردنية لاعجاز القران والسنة ، مقال : (وكل في فلك يسبحون الإعجاز العلمي) منصور العبادي https://eajazjo.org/%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%A٥%D٨%B٩%D٨%AC%D٨%A٧%D٨%B٢-%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٩%٨٢%D٨%B١%D٨%A٢%D٩%٨٦%D٩%٨A/%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%A٥%D٨%B٩%D٨%AC%D٨%A٧%D٨%B٢-%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%B٩%D٩%٨٥%D٩%٨A/%D٩%٨٨%D٩%٨٣%D٩%٨٤-%D٩%٨١%D٩%٨A-%D٩%٨١%D٩%٨٤%D٩%٨٣-%D٩%٨A%D٨%B٣%D٨%A٨%D٨%AD%D٩%٨٨%D٩%٨٦

أولًا: دلالة النسق والسياق:

يتطلّب البحث في الأنساق والسياق المقارنة بين ماورد في آية الأنبياء ، وماورد في آية يس، وهذه المقارنة تكشف عن:

أ تشابه السياق في السورتين في الآتي:

أولاً السورتان: مكيّتان . (١)

ثانياً اشتملت السورتان على:

١ بيان غفلة الناس، وإنذار أهل مكة . (٢)

٢ ضرب الأمثال، بسرد قصص إهلاك الأمم السابقة. (٣)

٣ الاستدلال على وحدانية الله بالأدلة العقليّة والحسيّة. (٤)

٤ الاستدلال على وجود الله ، بذكر الآيات الحسيّة التالية:

أ آيات الله في الأرض:

في سورة الأنبياء: (وجَعَلْنا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ). [الأنبياء ٣١]

وفي سورة يس: (وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاها وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ). [يس٣٣]

ب آيات الله في السماء:

في الأنبياء : (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ).[الأنبياء ٣٢]

وفي يس:(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ،وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) [يس ٣٨و٣٩]

ج آيات الله في الماء :

في الأنبياء : (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ).[الأنبياء ٣٠]

وفي يس: (وَجَعَلْنا فِيهَا جَنَّاتٍ من نخيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ). [يس٣٤]

ثالثا تطابق الجملة الأخيرة مع السياق السابق للسورتين:

في سورة الأنبياء : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ. كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ). [الأنبياء ٣٣]

---

(١) يوسف : عبدالرزاق ، المكي والمدني في القرآن الكريم . الأنبياء (٣٣) ، ويس (٤٠) .

(٢) الأنبياء من(آية ١ إلى آية ٥) وفي يس من آية (١إلى آية ١٠) .

(٣) الأنبياء من (آية ٦ إلى آية ١٥) ،ويس من (١٣ إلى ٣٢) .

(٤) الأنبياء من (آية ١٦ إلى ٢٩)، ويس من ٣٣ إلى ٣٦) .

في سورة يس : (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ). [يس٤٠]

رابعا توافق الآيتين في المفردات المشتركة الآتية : (الليل، والنهار،الشمس، والقمر، كلٌّ، في، فلك، يسبحون)

ب – اختلاف النسق بين الآيتين فيما يلي:

إنفراد آية الأنبياء بالمفردات : (وهو / الذي / خلق)

إنفراد آية يس بالمفردات : (لا / ينبغي / لها /أن / تدرك / ولا / سابقٌ)

آية الأنبياء تقدّم الزمان (الليل والنهار) على المكان (الشمس والقمر)

آية يس تقّدم السبب المؤثر (الشمس والقمر) على الأثر (الليل والنهار)

واختلاف النسق يفتح الدلالة على تحليل العناصر الآتية:

١ – دلالة الفصل والوصل:

قال تعالى : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمسَ وَالْقَمَرَ. كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ). [الأنبياء ٣٣]

وقال تعالى : (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ).[يس٤٠]

أول ما يُلحظ في ختام الآيتين فصل جملة (كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) في سورة الأنبياء ،ووصلها بالواو في سورة يس .

وقد أعتاد البلاغيون أن يذكروا مواضع الفصل والوصل في الكلام ، إلى الحد الذي قصر فيه بعضهم البلاغة على " معرفة الفصل والوصل " [(١)]،و قد يكون من الاستكثار في البحث الإسهاب في تفصيل مواضعه، وشواهده في كتب البلاغة ، إلا أنه من الإخلال به الإشارة العابرة إلى الدلالة الحاضرة في موضعي الفصل والوصل في الآيتين ،واختزالهما إيجازاً بالقول إن الفصل في آية الأنبياء واجب ، لكمال الاتصال بين الجملتين، حيث جاءت الثانية بمثابة بيان الحال من الأولى، أمّا الوصل في آية يس ،فلاتفاق الجملتين في الخبرية ، والقصد إشراكهما في الحكم الإعرابي ،فهي وإن كانت كذلك إلا أن الدلالة البلاغية للوصل أو الفصل في الآيتين تتجاوز هذه النمطية الدارجة في تبرير الفصل أو الوصل بين الجمل إلى معنى يكشفه النسق الآتي :

(١) الجاحظ، عثمان بن بحر، البيان والتبيين ،ج ١، ص ٨٨ . .

آية الأنبياء ابتدأت بجملة اسمية مثبتة ، أُخبر عنها ب فعل ماض : (وهو الذي خلق....)

آية يس ابتدأت بجملة اسمية منفيّة ، أُخبر عنها ب فعل مضارع : (لا الشمس ينبغي..)

آية الأنبياء تقوم على إثبات خلق الله لهذه الكواكب: (وهو الذي خلق الليل والنهار....)

آية يس تقوم على نفي اضطراب حركة هذه الكواكب: (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر...)

آية الأنبياء تدل على إثبات الانتظام المبيّن حاله ب (. كل في فلك يسبحون)

آية يس تدل على نفي الاختلال المؤكد بالتابع (و كل في فلك يسبحون)

الجملة الختامية في آية الأنبياء جاءت بأسلوب الفصل،لبيان حال ما قبلها (. كل في فلك يسبحون)

الجملة الختامية في آية يس جاءت بأسلوب الوصل،لتكون تابعة لما قبلها (و كل في فلك يسبحون)

فآية الأنبياء بدأت موصولة مع ما قبلها ، في سياق النظم المتصل في قوله تعالى :(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ).[الأنبياء ٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣]

ثم فُصلت جملة (كل في فلك يسبحون) عنها ، لأنها جاءت لبيان حال الخلق الذي ذكر قبلها في قوله (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر.كلٌّ..) فناسب بيان حالها عدم وصلها معها.

أمّا آية يس (لا الشمس..) فبدأتْ منفيّة مستأنفة غير معطوفة على ما قبلها، لأنها في حكم البيان لآيات الكون السابقة لها في قوله تعالى :(وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ).[يس٣٧و٣٨و٣٩و٤٠]

فجاءتْ بنفي اضطراب حركة هذه الكواكب : (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) ، ووصلتها بجملة نفي اضطراب حركة الزمن :(ولا الليل سابقٌ النهار) ، فكان بين الجملتين اتفاق تام في الأخبار المنفية عنهما ،فلمّا نفت الآية اختلال حركة المكان أعقبته

بنفي اختلال حركة الزمان ،لذا وجب الوصل بين الجملتين لما بينهما من الاتحاد التام ، ومن هنا كان إعراب الجملتين واحداً عند جمهور النحاة. (١)

أمّا جملة (وكل في فلك يسبحون) ، فهي جملة إثبات كان يمكن فصلها عمّا قبلها ،لوقوعها موقع التذييل ، لكن الوصل فيها أنسب ، لأن السياق في أصله خبري ، قائم على الإخبار بانتظام جريان الكواكب ،وانتظام تعاقب الليل والنهار ، فلو فُصلتْ جملة (كلٌ في فلك يسبحون) لعاد تنوين العوض (كُلٍّ) على آخر جملة في السياق وهي قوله (ولا الليل سابق النهار) ،أي : كل من الليل والنهار السابق ذكرهما ، لذا كان وجود واو الوصل مطلباً ، يجعل العائد موصولا بجميع آيات الكون الواردة في سياق الآيات السابقة ،بما في ذلك كوكب الأرض في قوله تعالى : (وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ..)[يس٤٠]

وهذا ما أختاره الزمخشري ، فقال :" وَكُلٌّ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه، والمعنى: وكلهم ...والمرادُ بهما جنسُ الطوالع كلَّ يومٍ وليلةٍ " (٢) ، قال الرازي :" كُلٌّ للعموم، فَكَأَنَّهُ أَخْبَرَ عن كل كوكبٍ في السماء سَيّارٍ" (٣) ،وبه قال أشهر المفسرين : ف "(كُلٌّ) يَعْنِي مِنَ الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل (فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) أَيْ يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماءِ". (٤)

٢ – دلالة عطف المفردات:

من دقائق البيان في آيات القرآن جميعها التلازم اللفظي بين بعض المفردات ،وخاصّة مفردتي الليل والنهار ، واتفاقهما في المجاورة الشكليّة، على مابينهما من التضاد المعنوي ، فلم يرد لأحدهما ذكر إلا وعُطف عليه الآخر . والمتتبّع المتأمّل يجد الليل يتقدّم ذكره على النهار ، وفي هذا الترتيب المطّرد لمحة بلاغيّة ،لملاحظة أن العدم قبل الوجود، والظلام قبل النور ، لأنه سبحانه بدأ بالليل ،فقال:(وهو الذي خلق الليل والنهار ..) "يعني: الظلمة والضوء"(٥) ، قال المفسرون " إن الله خلق الدنيا مظلمة" (٦) ف "الأساس في الكون ما أُكتشف أو ما يُعتقد إلى الآن علمياً هو الليل أو ما تسمى بالظلمة أو المادة السوداء " . (٧)

(١) السمين الحلبي: شهاب الدين ، الدر المصون ، يس :الآية ٤٠ .

(٢) الزمخشري ، الكشاف ، يس ،الآية ٤٠.

(٣) الرازي، السابق ، يس ،الآية ٤٠ .

(٤) القرطبي : محمد بن أحمد ، الجامع لأحكام القرآن ، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ،دار الكتب المصريّة ، القاهرة ، ١٩٦٤م. ط٢ ، الأنبياء ، الآية:٣٣.

(٥) السمرقندي: نصر بن محمد ، بحر العلوم ، سورة يس ، الآية : ٤٠.

(٦) السابق ، يس ،الآية : ٤٠ .

(٧) الدسوقي : حسني ، مقال : ظلمة الكون والمادة السوداء ، ص ٤

وممّا يؤكد بلاغة الدلالة في هذه الآية ما وجده الفلكيون في نظرياتهم ، إذ " أثبتت القياسات الحديثة أن الكون المكتشف في العصور الحديثة في معظمه يتألف من مادة مظلمة "[١]،"ويسود الاعتقاد بين علماء الفلك بأن ذلك الوسط يتكون من مادة سوداء ".[٢]

ويتجاوز العطف وصلاً بين الليل والنهار إلى إعمالهما مفعولين أول وثانٍ للفعل يغشى في موضعين:

في قوله تعالى: (..ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار ...) [الأعراف ٥٤]

وقوله تعالى : (..جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار...). [الرعد ٣]

وهذا يؤكد التلازم والترابط المطّرد بينهما ، وكأنهما زوجان يغشى أحدهما الآخر ،وفي هذا معجزة أكدها علم الفلك الحديث ، حيث ثبت أن الشمس تمدُّ القمر بالضياء الذي ينعكس على الأرض. بعد أن كان الاعتقاد السائد أن القمر مضيء بذاته. [٣]

والمتصفح لكتاب الله لا يجد نسق عطف يتقدّم فيه النهار على الليل ، فالليل أولاً والنهار تاليا له في الذكر [٤]، وهذه الرتبة ظلت متلازمة بينهما ،حتى في آية يس (ولا الليل سابق النهار)، فذكرت الآية الكريمة الليل أولا ،إلّا أن أسلوب النفي المتسلط على الاسم استدل به بعض العلماء " على أن النهار مخلوق قبل الليل، وأن الليل لم يسبقه بالخلق"[٥]. فكان "من الناس من يجعل هذا دليلاً على أن أول الشهر النهارَ دون الليل ، لأنه إذا لم يسبق النهار واستحال اجتماعهما وجب أن يكون النهار سابقاً " [٦]

ولكن بعض المفسرين يرى أن المقصود بقوله تعالى: ﴿ولا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ﴾ "أنَّ اللَّيْلَ لَيْسَ بِمُفْلِتٍ لِلنَّهارِ، فالسَّبْقُ بِمَعْنى التَّخَلُّصِ والنَّجاةِ " [٧] ،وليس بمعنى التقدّم ، أي أنهما مترابطان لا يفوت أحدهما الآخر، وبه فسّر السبق في قوله تعالى ﴿أمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أنْ يَسْبِقُونا﴾ [٨] أي: لن يفلتوا من عقابنا.

وبعض العلماء نظر لدلالة اللغة ، فقال في تفسير (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا﴾ الأصل "الشمسُ لا ينبغي لها. لكن قدَّمَ النفيَ ليكون المنفيُّ هو الجملة الاسمية برأسها كُلُّها... يعني: لا

---

(١) السيد حامد ، الإعجاز البياني والعلمي في كتاب الله ،ص ٣٨ .

(٢) الدسوقي ، السابق ، ص ٧ رابط الموضوع: https://www.alukah.net/sharia/٠/٥٧٢٥٦/%D٨٪B٨٪D٩٪٨٤٪D٩٪٨٥٪D٨٪A٩-%D٩٪٨٨٪D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٩٪٨٥٪D٨٪A٧٪D٨٪AF%D٨٪A٩-%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪B٣٪D٩٪٨٨٪D٨٪AF%D٨٪A٧٪D٨٪A١/#ixzz٨INuIqECz

(٣) ينظر : السيد حامد ، السابق ، ص ٦٦.

(٤) ينظر: البقرة ١٦٤، ٢٧٤،آل عمران ١٩٠، يونس ٦، النحل ١٢، الإسراء ١٢، الأنبياء ٢٠، ٣٣، ٤٢،المؤمنون ٨٠، ٤٤الفرقان ٦٢، القصص ٧٣ ، الروم ٢٣، سبأ ٣٣، فصلت ٣٧، ٣٨، الجاثية ٥، المزمل ٢٠.

(٥) النحاس ، إعراب القرآن ، يس الآية ٤٠.

(٦) الماوردي: علي بن محمد ، النُكت والعيون،يس ،الآية ٤٠.

(٧) ابن عاشور، المصدر السابق ،يس الآية ٤٠ .

(٨) العنكبوت ،الآية ٤ .

يمكن أن تُدرك القمر فتجتمع معه في الليل، فإذا غابت لا يمكن أن تخرج في زمن الليل، "لأن المنفي السبقية الموجبة لتراخى النهار عن الليل وتخلّل زمن آخر بينهما، وحينئذ يثبت التعاقب وهو مراد الآية. وأما سبق أول المتعاقبين للآخر منهما فإنه غير معتبر" [١] ،ف " لا يجوز أن يتقدّم أحدهما صاحبه، لأن وجود هذا عدم هذا ، ولا يقع فيهما القبل والبعد "[٢] ، "وبيانه من الآية أنه جعل الشمس التي هي آية النهار غير مدركة للقمر الذي هو آية الليل، وإنما نفى الإدراك لأنه هو الذي يمكن أن يقع، فإنه لا يقال: أدرك السابق اللاحق، ولكن أدرك اللاحق السابق، وبحسب الإمكان توقيع النفي، فالليل إذاً متبوع والنهار تابع ". [٣] ، "وصوغ هذا بصيغة الإخبار عن المسند إليه بالمسند الفعلي، لإفادة تقوّي حكم النفي ، فذلك أبلغ في الانتفاء " [٤] ، وتعليل دلالة تركيب افتتاح الجملة بحرف النفي قبل ذكر الفعل المنفي ،" لِيَكُونَ النَّفْيُ مُتَقَرَّرًا في ذهن السامع أقوى ممّا لو قيل : الشمس لا ينبغي لها أن تُدرك القمر " . [٥] ، وبلاغة المعنى في "إِيلاءُ حَرْفِ النَّفْيِ الشَّمْسَ، لِلدَّلالَةِ عَلى أَنَّها مُسَخَّراتٌ لا يَتَيَسَّرُ لَها إِلّا ما قُدِّرَ لَها" [٦] ،وهذا التأويل يفتح الباب لبحث :

٣- دلالة التقديم والتأخير:

المتصفح لكتاب الله لا يجد نسق عطف يتقدم فيه ذكر القمر على الشمس، فالشمس أولاً ،والقمر تالياً ،وفي آية يس يتأكد هذا التقديم، ولكن بالنفي (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر..)، مّا جعل بعض المفسرين يعتقد أن "ذلك يستدعي تقدم القمر، وتبعية الشمس "[٧] ، وردّ آخرون هذا الرأي بأن المقصود "لا تجتمع معه في فَلَك واحد" [٨]، "وقيل: المعنى: إن سير القمر سير سريع، والشمس سيرها بطيء فهي لا تدركه"[٩]، لأنه " يقطع فلكه في شهر، والشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة، فكانت جديرة بأن توصف بنفي الإدراك لبطء سيرها، وكان القمر خليقاً بأن يوصف بنفي السبق لسرعة سيره " [١٠]، وبعضهم فصّل على " ثَلاثَةُ أَقْوالٍ:

(١) الزمخشري ، الكشاف ، يس ،الآية ٤٠ .

(٢) النحاس : أبو جعفر ، إعراب القرآن ، ص ٣٣٨ .

(٣) أبو السعود: محمد بن محمد ، إ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، يس ،الآية ٤٠ .

(٤) ابن عاشور، السابق ، يس ،الآية : ٤٠.

(٥) ابن عاشور : الطاهر بن محمد ، المصدر السابق ، يس ،الآية ٤٠.

(٦) أبو السعود ، المصدر السابق ، يس :الآية ٤٠

(٧) المصدر السابق. الآية نفسها.

(٨) ينظر : البغوي :الحسين بن مسعود ، معالم التنزيل في تفسير القرآن ، تفسير الآية ٣٣ من سورة الأنبياء ، والآية ٤٠ من سورة يس، وابن عادل ، اللباب في علوم الكتاب ، تفسير الآية ٣٣ من سورة الأنبياء ، والآية ٤٠ من سورة يس ،

(٩) مكّي: أبو محمد بن أبي طالب ، الهداية إلى بلوغ النهاية ، يس ، الآية ٤٠

(١٠) القنوجي: صديق حسن ، فتح البيان ، يس ،الآية : ٤٠ .

أحَدُها: أنهما إذا اجتمعا في السماء ، كان أحدهما بين يدي الآخر ، فلايشتركان في المنازل، قاله ابنُ عبّاس .

والثّاني: لا يُشْبِهُ ضَوْءُ أحَدِهما ضَوْءَ الآخَرِ، قالَهُ مُجاهِدٌ.

والثّالِثُ: لا يَجْتَمِعُ ضوء أحدهما مع الآخر ، فَإذا جاء سلطان أحدهما ذَهَبَ سُلْطانُ الآخَرِ، قالَهُ قَتادة " [١]

والراجح في الأقوال السابقة قول ابن عبّاس ، فالمقصود عدم اشتراكهما في المنازل وهي أبراج الفلك الدائر ،لأن الله سبحانه جعل " سَيْرَ الشَّمْسِ والقَمَرِ عَلى نِظامٍ يَسْتَحِيلُ مَعَهُ اتِّصالُ إحْدى الكُرَتَيْنِ بِالأُخْرى، لِشِدَّةِ الأبعاد بين مداريهما" [٢].

إلا أن الطاهر ابن عاشور يرى أن الآية مشتملة على بلاغة "الاكتفاء " [٣]،وهي الاكتفاء بشطرٍ من الكلام عن الشطر المقابل له ،وعلى رأيه يكون التقدير المساواة بين الشمس والقمر ،ومايترتب على تعاقبهما من الليل والنهار، وتقدير الاكتفاء: (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس . ولا الليل سابقٌ النهار، ولا النّهار سابقٌ الليل) ،فاكتفت الآية بذكر الجزء، لدلالة السياق عليه ، وبهذا يكون قد فسّر الآية للدلالة على شدة التلاحم والتلازم بينها ، ونفي تقدّم أحد الطرفين على الآخر، أو أسبقيته، أو أهميّته .

ولكن بلاغة الدلالة في الآية قد أشارت لمعنىً غير هذا،لذلك يقول الرازي: " إنَّ سُلْطانَ اللَّيْلِ وهو القَمَرُ لَيْسَ يَسْبِقُ الشَّمْسَ وهي سُلْطانُ النَّهار"[٤] ،فالتقديم يدل على أهميّة الشمس ، وأنها مصدر حياة الكون ،وكل الكواكب تعتمد عليها ، كما هو مثبت حديثا فيما يسمى بنظام المجموعة الشمسية [٥]

وممّا يؤكد بلاغة التقديم افتتاح الجملة بكلمة (كُلّ) وهي لفظٌ دالٌ على العموم والشمول وقع مبتدأً ،وجاء خبره (يسبحون) جملة فعليّة، فتسلّط التخصيص على الجار والمجرور قبلها: (في فلك)،وشمل معناها جميع ما تقدم عليها أي: كل الكواكب المذكورة في الآيات قبلها ، فأفادت الدلالة العموم والخصوص في آن واحد ،عموم السباحة لكل الكواكب والمجرات ، وخصوص المسار والانتظام (في فلك) ، لأن تقدّم الجار

(١) البغوي :الحسين بن مسعود ، معالم التنزيل في تفسير القرآن ، تفسير الآية ٣٣ من سورة الأنبياء ، والآية ٤٠ من سورة يس .

(٢) ابن عاشور: الطاهر بن محمد ، التحرير والتنوير ، سورة يس ، الآية ٤٠ .

(٣) السابق ، يس ،الآية ٤٠ .

(٤) الرازي ، السابق ، يس :الآية ٤٠.

(٥) الحاج :يوسف ، موسوعة الإعجاز العلمي ، ص ٢٧٠

والمجرور على فعله يفيد الاختصاص كما نصّ على ذلك جمهور البلاغيين. [١]، فالسباحة ليست عشوائية ، وإنما هي منتظمة على هيئة خاصّة في فلك خاصّ كانتظام حبّات اللؤلؤ في العقد .

إلا أن هناك من يرى أن شبه الجملة (في فلك) " ظرف مستقرٌ "،خبر المبتدأ (كُلّ) [٢]، وبهذا تتحوّل الدلالة من التخصيص إلى التنصيص ، فقد نصّت على المسار ،وأفادت الإخبار ، لتكون الجملة الفعلية (يسبحون) في موقع بيان الحال . فتأخير الفعل (يسبحون) عن معمولاته ، وعود ضميره إليها، يجعل السباحة دائبة مستمرة.

٤ – دلالة المطابقة والمقابلة:

من بلاغة المطابقة أنها قد تتحوّل إلى مقابلة إذا تعددت الألفاظ المتضادة في السياق أو في الجملة الواحدة ، أو كان اللفظان موهمين بالتضّاد ، فالشمس والقمر ليسا ضدين كالليل والنهار، لأنهما كوكبان، يستمد أحدهما نوره من الآخر، فإذا ورد ذكرهما مع الليل والنهار في آية واحدة، تتحول مطابقة التضاد في الألفاظ إلى مقابلة معانٍ .

وفي الآيتين الكريمتين نلمح هذه المقابلة في الجمع بينها في سياق واحد

في آية الأنبياء بالإثبات: (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر..)

وفي آية يس بالنفي: (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ..)

وقد حاول بعض المفسرين تعليل هذه المقابلة، فقال: "لَمّا ذَكَرَ الشمس والقمر، وكانت الشمس مقارنةً للنهار في مخيّلات البشر، وكان القمر مُقارناً لليل، وكان في نظام الليل والنهار منافع للناس، اعترض بذكر نظام الشمس والقمر أثناء الاعتبار بنظام الليل والنهارِ " [٣].

وربما كان للجمع بينهما على هذا النحو دلالة بلاغية عميقة أبعد مما ذهب إليه المفسرون، تتصل بالتفكّر في آيات الله في الكون : (ويَتَفَكَّرُونَ فِي خَلقِ ٱلسَّمَوَتِ وَٱلأَرضِ رَبَّنَا مَا خَلَقتَ هَذَا بَاطِلا سُبحَانَكَ) [آل عمران ١٩١]، فلا يوجد في الخلق والتكوين والتقدير مايكون عبثا، أو صدفة، أو طبيعةً . فالجمع بين الشمس والقمر والليل والنهار هو جمع بين الأثر والمؤثر ، والسبب والمسبب ، فإن نشوء النهار مرتبط بسطوع الشمس على نصف الكرة الأرضية ، وحلول الظلام مرتبط بغيابها عن نصفها الآخر، الذي يظهر معه إنعكاس شعاعها على القمر، ومع أن هذه الحقيقة لم تتكشّف إلا

(١) القزويني وآخرون ،شروح التلخيص ، ج١ ص ٢٣٤

(٢) ابن عاشور، السابق ، الأنبياء ، الآية : ٣٢ .

(٣) السابق ، يس، الآية : ٤٠

في العلوم الحديثة [١]، إلا أن دلالة التكوير والتسخير في قوله تعالى : (..يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى..). [الزمر ٥] قد أشارت لهذه العملية التعاقبية المطردة في حركة الشمس والقمر، " لأنه لمّا ذكر الأشياء المتضادّة بالحقائق أو بالأوقات ذِكراً مجملاً في بعضها الذي هو آيات السماء، ومفصّلاً في بعضٍ آخر هو الشمس والقمر ، كان المقام مثيراً في نفوس السامعين سؤالاً عن كيفية سيرها، وكيف لايقع لها اصطدام أو يقع منها تخلّف عن الظهور في وقته المعلوم ،فأُجيب بأنّ كل المذكورات له فضاء يسير فيه لا يُلاقي فضاء سيرَ غيره " [٢] ، وهي من دلائل الإعجاز في بلاغة القرآن الكريم التي أكدتها آية (كلٌّ في فلك يسبحون) .

ثانياً: دلالة التشكيل والتأويل:

يوحي التشكيل اللفظي للكلمة بدلالات متنوّعة ،تفتح آفاقا واسعة للتأويل، بدءاً بالفونيم ، وهو الجزء الصوتي البسيط للنغمة [٣]، ثم دلالة الصوت ، ثم دلالة الحرف،ثم دلالة اللفظ، ثم دلالة التركيب . ويمكن أن يجد البحث في آية (وكل في فلك يسبحون) دلالات بلاغيّة، غير دلالة القلب والعكس التي اقتصر عليها علماء البلاغة، وأُغرم بتتبعها أصحاب البديعيات. ولذا انقسم البحث في التشكيل الدلالي إلى :

١ – دلالة الإيحاء الصوتي :

يعتمد تميّز الأسلوب على دقّة انتقاء الألفاظ المعبّرة المؤثّرة الموحية الدالّة ،وفي هذه الآية تتجلّى روعة الاختيار، فلو تمت مقارنتها بألفاظ قريبة وبديلة لها لم تُعطِ تلك الدلالة التي نجدها في ثنايا الآية .

فقد تميّز اختيار لفظ العموم (كلّ) عن غيره من ألفاظ العموم ك (جميع) ،بإيجازه ، وتناسقه، وتناغمه مع ما بعده صوتيا:(كل في فلك) ، إضافة إلى تجاوبه مع تنغيم التنوين وحذف المضاف إليه (كُلٌّ..) وارتداده على ما قبله من آيات، وهو ما لا وجود له فيما لو قيل (جميعٌ في فلك)، إضافة لما يضفيه حرف الكاف من إشارات دالّة على كاف: الكواكب، والكون، والحركة،والسكون، والفلك، والتكوير (الشكل الكروي) ،وكلها من بلاغة الدلالة الصوتيّة المؤكدة روعة هذا الانتقاء اللفظي .

(١) الحاج ، السابق ، ٢٣٤.

(٢) ابن عاشور ، السابق ، يس ، الآية : ٤٠ .

(٣) شاكر : عبدالقادر ، علم الأصوات العربيّة ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ٢٠١٢ ، ص ٢٣.

وفي اختيار (في) الدالة على الظرفيّة دون غيرها من حروف المعاني ، ك على، أو الباء، أو من ،أو غيرها من الظروف الدالة ك جوف، أو داخل، مزيّة إضافيّة غير مزيّة الإيجاز، والدّقة في الاختيار، والمجانسة في الألفاظ ، وهي الدلالة على الانغماس والاتّساق والانتظام لا نجدها حين يكون البديل غيرها، كما لو استخدم الظرف الحقيقي (وكلٌ جوف فلك يسبحون) أو (وكلٌ داخل فلك يسبحون) أو استبداله بالحرف : (كلٌ على فلك يسبحون)، والتي تظل دلالتها قاصرة عن دلالة (في) الظرفيّة في الآية الكريمة .

٢- دلالة المزاوجة المعنويّة:

تتميّز هذه الآية بمفردتين لم تتكررا بمعناهما ، أو مصدر اشتقاقهما في آي القرآن الكريم ،و هما (فلك) و (يسبحون)

أمّا كلمة (فَلَك)، فهي وإن كانت متفردة في الدلالة إلا أنها تجتمع مع كلمة (فُلْك) التي وردت في القرآن الكريم مطابقة لها في الحرف، والمادة، والرسم، مخالفة لها في الشكل، والنطق، والدلالة، إلا أنها في المواضع كلها أتت معرّفة ب أل ،ولم تأتِ نكرة أبداً كما هي في آية (وكل في فلك) .

وكذلك كلمة (يسبحون)، نجدها تتفرّد في اللفظ ،والنطق، والدلالة ،عن كلمة (يسبّحون) الواردة في التنزيل بتشديد الباء، وهي وإن كانت مطابقة لها في مادتها المعجمية (س ب ح)، ورسمها، إلا أنها مختلفة عنها في مصدرها الذي هو السباحة، وليس التسبيح، وإن كان بعض القراء يقرأ (كل في فلك يسبّحون) بتشديد الباء .

وهذا يؤكد التزاوج الدلالي في المعاني المعجمية لمفرداتها الموجزة المركّزة ، فمادة (ف ل ك) في الدلالة المعجميّة توسّع آفاق التأويل ، ففي اللسان :" فَلَكُ كُلِّ شَيْءٍ: مُسْتَدَارُهُ وَمُعْظَمُهُ. وَفَلَكُ الْبَحْرِ: مَوْجُهُ الْمُسْتَدِيرُ الْمُتَرَدِّدُ.و الْفَلَكُ: مَدَارُ النُّجُومُ ، قال الْفَرَّاءُ: الْفَلَكُ اسْتِدَارَةُ السَّمَاءِ. وَالْفُلْكُ، بِالضَّمِّ: السَّفِينَةُ..وجمع فُلْك وفَلَك (أفلاك) " [١]

وهذا يشير إلى أن مفردة (فلك) منسجمة في نسقها مع ماقبلها ،ومابعدها ،مطمئنة ساكنة في سياقها ، فيها إلماحة لملاحظة المشابهة بين السماء والماء، وتهيئة لاستقبال معنى سباحة الكواكب في الفضاء، التي لا تتصورها الأذهان البشرية في فترة نزول الآية الكريمة . وهو تقريب لما لا يتصوّره العقل إلى ماتراه العين، وتشكيل للمفردة المجرّدة بالصورة المحسوسة، فكما أن هنا أفلاك تسبح في البحار هناك أفلاك تسبح في الفضاء .

(١) ابن منظور: جمال الدين ، ، لسان العرب ،مادّة :فلك.

ومايرشّح هذه المزاوجة الإخبار عنها بكلمة (يسبحون) ، كذلك اتصالها بآية أتت بعدها مباشرة في سورة يس ، وهي قوله تعالى:(وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) [يس٤١]،وقد أتت بمثابة المجانسة اللفظية بين (فَلَك، وفُلْك)، وهي مجانسة تتجاوز المادة المعجمية الموحّدة بينهما، إلى المزاوجة الدلالية المشتركة .

وكذلك تأتي مادة (س ب ح) ففي اللسان " السَّبْحُ والسِّباحة: العَوْمُ. وسَبَحَ بالنَّهْرِ وَفِيهِ يَسْبَحُ سَبْحاً وسِباحةً ، وسَبْحُ الفَرَسِ: جَرْيُه ، وَالنُّجُومُ تَسْبَحُ فِي الفَلَكِ سَبْحاً إِذا جَرَتْ فِي دَوَرانها " (١) .

وكلها تشير إلى السير بانتظام في مضمار ، ولذلك سميت السبحة بهذا الاسم ، لأنها تضم " الخَرَزاتُ الَّتِي يَعُدُّ المُسَبِّحُ بِهَا تَسْبِيحَهُ " (٢). وهي حبّات حلقيّة صغيرة في فلكة مستديرة .

والسبحة وإن لم تكن معروفة وقت نزول الآية الكريمة ،إلا أن دلالة السباحة على الجريان ،مما استعملته العرب مجازاً، فقالوا :"فرس سابح" (٣) كأنه يسير في الهواء ولا يلامس الأرض ،لسرعة جريه .

ومن هنا كان انتقاء هذه المفردة المتمكّنة لفظيّا المشحونة دلالياً ، المعبّرة عن حركة سير الكواكب في الفضاء ،وهي مع ذلك تحمل تورية خفيّة عن معنى آخر قد لا يتبادر للذهن في وجوه القراءات المتعدّدة للقرآن الكريم ، ممّا يعطي الإشارة ، ويفتح الدلالة للتأويل ،لاستيعاب احتمال التورية في اللفظة، ومع أن مادتهما المعجمية واحدة إلا أن مصدرهما مختلف، فيسبحون مشتقة من السباحة ،ويسبّحون مشتقة من التسبيح ، إلا أن سياق الآية يحتمل هذه الدلالة،و يشير إليها في السورة نفسها بقوله : (وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ). [الأنبياء ١٩ و٢٠]

فلمّا ذكر الله سبحانه وتعالى أن مَن عنده وكل من في السموات والأرض (يسبّحون الليل والنهار لايفترون) ، ذكر في آية (كل في فلك يسبحون) مرشحات هذا التأويل (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر..) وهي داخلة في معنى السموات والأرض في آية (يسبّحون الليل والنهار ..)." و إذا أمعنا التدبر في كلمة يسبحون بالباء المفتوحة ويسبحون بالباء المشددة و المكسورة ، فسنجد أن القرآن قد جاء بهذه الكلمة الجامعة لما

(١) ابن منظور: جمال الدين ، ، لسان العرب ،مادّة :فلك.
(٢) المصدر نفسه :سبح .
(٣) المصدر نفسه: سبح .

تؤديه الكواكب و النجوم و الشمس و القمر من سباحة منتظمة في أفلاك ثابتة" [١]، قال تعالى :(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ). [الإسراء ٤٤]

٣ – دلالة المجانسة العكسيّة:

وقف البلاغيون القدماء أمام اللفتة البديعية الجميلة في الآية، في المجانسة اللفظية الصوتية التي في قوله (ك ل ف ي ف ل ك)،و رأوا فيها بديعا لفظياً جميلا أطلقوا عليه (جناس القلب)، وهو أن تقرأ حروف الجملة عكساً، وطرداً، فيكون المعنى واحداً ، وقد بدأت هذه اللفتة تنمو وتتطور في كتب البلاغة، فقد " سَمّاهُ السَّكّاكِيُّ المَقْلُوبَ المُسْتَوِي، وجَعَلَهُ مِن أصْنافِ نَوْعٍ سَمّاهُ القَلْبَ " [٢] ، ثم تنوعّت المصطلحات ،والدلالة واحدة من " تجنيس القلب " عند القزويني وشرّاح التخليص ،أو "التجنيس المقلوب " كما سمّاه ابن معصوم ، إلى " التجنيس المعكوس " عند ضياء الدين بن الأثير، أو" جناس العكس "عند ابن الأثير الحلبي .والذي سمّاه المظفّر العلوي " المعكوس "، واطلق عليه البغدادي مصطلح "المقلوب " وكانت جملة (كل في فلك) حاضرة في شواهدهم على هذا اللون البديعي الجميل. [٣]

ولم يقتصر إعجاب البلاغيين بالمجانسة الحرفيّة المقلوبة في الجملة ، بل افتتن بها كثير من المفسّرين ،ورأوا فيها جمالاً شكليا آخّاذا، يقول الطاهر بن عاشور : "ومن بدائع الإعجاز في هذه الآيَةِ أنَّ قَوْلَهُ تَعالى: ﴿كُلٌّ في فَلَكٍ﴾ فيهِ مُحَسِّنٌ بَدِيعِيٌّ، فَإنَّ حُرُوفَهُ تُقْرَأُ مِن آخِرِها عَلى التَّرْتِيبِ كَما تُقْرَأُ مَن أوَّلِها مَعَ خِفَّةِ التَّرْكِيبِ ،ووَفْرَةِ الفائِدَةِ ، وجَرَيانِهِ مُجْرى المَثَلِ مِن غَيْرِ تَنافُرٍ ولا غَرابَةٍ " [٤] . ورأى بعض العلماء أن جناس القلب (كلّ في فلك) ، لم يسبق له مثيل في لغة العرب ، قالَ العَلّامَةُ الشِّيرازِي في شَرْحِ المِفْتاحِ : وهو نَوْعٌ صَعْبُ المَسْلَكِ قَلِيلُ الاسْتِعْمالِ. قُلْتُ: ولَمْ يَذْكُرُوا مِنهُ شَيْئًا وقَعَ في كَلامِ العَرَبِ فَهو مِن مُبْتَكَراتِ القُرْآنِ ". [٥]

لكنهم لم يقفوا على السرّ الدلالي لهذا الجناس الجمالي ، وهو عودٌ على بدء ، فكما أن حروف الجملة تعود من آخرها لتدل على أولها ،فكذلك ماتقدم من حركة الكواكب، وخاصة التي ذكرت في الآية نفسها ،و هما الشمس والقمر، فحركتهما إشراق فسطوع

(١) تأملات إيمانية في سورة يس ،المصدر : موقع موسوعة الاعجاز العلمي في القرآن والسنة

(٢) ابن عاشور ، المصدر السابق ، الأنبياء ،الآيه :٣٣.

(٣) ينظر: مطلوب ،أحمد ، معجم المصطلحات البلاغية ، ج ٢ ،ص ٢٣٤ مصطلح : التجنيس المعكوس ،تجنيس العكس ،التجنيس المقلوب ،تجنيس القلب ، جناس العكس ،جناس القلب ، المعكوس، المقلوب.

(٤) ابن عاشور ، المصدر السابق ، الأنبياء ، الآية : ٣٣

(٥) السابق ، سورة يس ،الآية : ٤٠

فزوال ،ومنظر الشمس في الظهيرة في كبد السماء يعود تدريجيا بنفس كمية الشعاع ،حتى المغيب ، وكذلك حركة القمر في كل شهر تكتمل في المنتصف ،ثم تتراجع بنفس القدر والمدة الزمنية (والقمر قدرناه منازل..) وقد ذكر بعض أهل العلم أن آية (والقمر قدرناه منازل ..) فيها إشارة إلى عمر الإنسان كيف ينمو في القوة ثم يتناقص تدريجيا ويضعف بالقدر نفسه [١]، "هذا بالإضافة إلى ما تم كشفه في القرن العشرين من أن النجوم كسائر المخلوقات تنمو وتشيخ ثم تموت"[٢]

وهناك دلالة تظل مستمرة في قراءة (ك ل ف ي ف ل ك) عكسيا ، وهي إيحاءٌ بدوران الأفلاك ،وعودها على بدئها ،مع استمرار حركتها بانتظامٍ وانسجام ، " فإنّ أهل الأرصاد الأقدمين لمّا رصدوا تلك المدارات وجدوها لا تتغيّر، ووجدوا نهايتها تتصل بمبتدأها ،فتوهموها طرائق مستديرة تسير فيها الكواكب كما تتقلّب الكُرَةُ عَلى الأرْضِ " [٣]

أمّا حديثا فقد " أعلن أدوين هوبل عام ١٩٢٩م قانونه الذي يؤكد " أن المجرات تبتعد بسرعة تتناسب طرديًّا مع بعدها عنّا ،وقد تبيّن فيما بعد أن المجرات لا تبتعد فقط عنا، بل هي تتباعد فيما بينها كذلك ،وما دام الكون في توسع دائم، إذن لو شغَّلنا الفيلم عكسيًّا إلى الوراء ،فمن الضروري أن الكون كله كان متركزًا في السابق في نقطة واحدة " [٤]

وممّا يؤكد صحّة فرضية دلالة (ك ل ف ي ف ل ك) على الطرد والعكس في العود على البدء قوله تعالى بعد ذلك في السورة نفسها: "يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ " [الأنبياء ١٠٤]، "فإذا كانت الآية السابقة تشير إلى توسع الكون عند بدايته فإن هذه الآية تشير إلى انكماشه عند نهايته و"سيعيد الله الكون إلى ما كان عليه عند بدايته" [٥].

وبهذا يتضح أن دلالة جناس القلب الموجودة في (ك ل ف ي ف ل ك) ليست حلية شكلية، ولا زخرفة لفظية، وإنما هي دلالة بلاغيّة عميقة سبقت النظريات الحديثة في علوم الفلك ،إذ يتوقع العلماء المعاصرون أن الكون " سوف يتباطأ تمدده تدريجياً، ثم يقف، وبعدها ينقلب على نفسه، ويبدأ بالتراجع في حركة تقهقرية". [٦]

---

(١) ينظر:الفيصل : نايف ، تدارس القرآن الكريم سورة يس ، الآية :٤٠ .

(٢) ينظر : مقال : الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد بورباب ،جريدة الرابطة ، المغرب، ٩ أكتوبر ،٢٠٠٩ ، ص٣.

(٣) ابن عاشور ، السابق ، يس :الآية ٤٠ .

(٤) الحاج ، السابق ، ص ١٨٧.

(٥) العبادي: منصور أبو شريعة ، وكل في فلك يسبحون الإعجاز العلمي ، مقال في موقع الجمعية الأردنية لاعجاز القران والسنة . رابط

(٦) السامرائي ، السابق ، الرابط نفسه.

ثالثا: دلالة التمثيل والتخييل :

١ – دلالة الانزياح المجازي :

من حسن النظم في هذه الآية تناسق الفكرة المجرّدة مع الصورة المتخيّلة ، فقد تجاوزت الآية النمطية التعبيريّة المعهودة إلى إنزياح جمالي خلاّب، يتضح في المقارنة بين التعبير الدلالي الاعتيادي (وكل في فلك يدورون) وبين التعبير الخيالي الجمالي: (وكل في فلك يسبحون) ، فالصورة البيانيّة تتجاوز الاستعارة المجازيّة التي يُستعار فيها لفظ السباحة في الماء للحركة في الفضاء، إلى مدى أرحب وأشمل وأجمل ، وهو الإشارة إلى انعدام الجاذبية وكون المجرات سابحة في الفضاء كما تسبح الذرات في الهواء التي تقابلها الصورة البحريّة للكائنات التي تطفو على الماء .

فإذا كان قانون الجاذبية الأرضية قد تمّ الإفصاح عنه قبل اكتشاف نيوتن له بأكثر من ألف عام من خلال المعنى الدلالي[١] ، لقوله تعالى : (ألم نجعل الأرض كفاتا) إذ أن مادة (ك ف ت) تشير إلى الجذب بقوة وَيُقَالُ: كفته الله أي قبضه الله. وَالْكِفَاتُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يُضَمُّ فِيهِ الشَّيْءُ وَيُقْبَضُ " [٢] ، و هو العنصر الفعّال في ثبات الأشياء واستقرارها ..

فإنّ انعدام الجاذبية في الفضاء الخارجي قد أشارت له آية (وكل في فلك يسبحون) ، فالسباحة المائية أن تطفو الأجسام الفاقدة للإرادة على سطح الماء ، أو تتحرك الأجسام الحية داخل الماء، معتمدة على الانسيابية والتموجات المائية دون الرسوب في قاع المحيط ، مثلما نشاهده الآن في حركة رواد الفضاء المتلّفزة في السباحة الفضائية ، وهذا السبق العلمي تم اكتشافه عن طريق الاستعارة اللفظية في قوله (يسبحون) قبل أن يكتشفه العلم الحديث .

كذلك دلّت استعارة السباحة على حقيقة علميّة جديدة لم يكن يتصورها العقل البشري إلى عهدٍ قريب ،و هي فقدان الأوكسجين ، فإن رواد الفضاء لا يستطيعون التجول خارج مركباتهم الفضائية إلا إذا استعانوا بأنابيب الهواء ،كذلك السبّاحون لا يستطيعون الغوص في المياه إلا بواسطة إسطوانات الأوكسجين، وهو من بلاغة الدلالة المعجزة في هذه الآية التي أكدها " رواد الفضاء الذين خرجوا خارج نطاق الجاذبية الأرضية ..فكل من صعد إلى الفضاء يؤكد أنه كان يحس وكأنه يطفو على سطح الماء ،كما هو مذكور في

(١) الحاج :يوسف ، موسوعة الإعجاز العلمي ، ص ١٢٧

(٢) ابن منظور ، السابق ، كفت .

مدونات رواد الفضاء :[1]" astronauts feel like they are floatinq when they are in space"

وقد أشارت آيات أخرى إلى هذه السباحة ، كقوله تعالى : (والسابحات سبحا) ، إذ فسّرها بعض العلماء بقولهم : "هي النجوم تسبح في أفلاكها " [2]

٢ – دلالة الاشتقاق المجازيّ :

أعطانا الاشتقاق المجازي في الآية الكريمة دلالتين ، كل دلالة منهما تضيئ جوانب مخفيّة من أسرار الكون ،وأولهما:

أ- الدلالة على الحركة :

من الإعجاز البلاغي في هذه الآية أيضاً الإخبار عن حركة الكون المستمرة باختيار المضارع (يسبحون) دون غيره من المشتقات ، فلو كان الإخبار بالمفرد بصيغة اسم الفاعل (وكل في فلك سابح)، أو الإخبار بالجملة الاسمية المصدريّة (وكل في فلك سباحته)، أو الإخبار بالجملة الفعلية الماضية (وكل في فلك قد سبح)،لما كان له من الدلالة على حركة الكواكب والمجرات المنتظمة المستمرة الدائبة الدائمة ما لقوله (وكل في فلك يسبحون)،فقد بث الفعل المضارع الحركة في الدلالة ،والحياة في الكون، والروعة في التعبير. "قالَ بَعْضُ عُلَماءِ الفَلَكِ: تُشِيرُ الآيَةُ إلى حَرَكَةِ هَذِهِ الكَواكِبِ "[3]،كَآيَةِ: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالخُنَّسِ ، الجَوارِ الكُنَّسِ﴾ [التكوير ١٥و١٦]

وهي حركة أشارت لها دلالة الاشتقاق قبل مكتشفات علم الفلك الحديث الذي قرّر في نظرياته الفلكية أن مليارات المجرات في الفضاء متحركة وليست ساكنة، ونشطة وليست خاملة، إذ أن لكلٍّ منها وظيفةً تؤديها، ومهمة تنجزها، ومساراً لا تحيد عنه . [4]

ومما يؤكد هذا الرأي دلالة السياق في بداية آية يس ،فقد ظهرت الحركة في التعبير بالفعل المضارع عن الدورة الشمسيّة (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر)، فالجملة وإن كانت نفياً لإدراك الشمس للقمر إلا أنها إثبات لدوران الشمس والقمر من خلال الفعل المباشر للحركة: (تدرك)، ثمّ أعقبها بالاستقرار المستمر في التعبير باسم الفاعل عن ثبات الليل (ولا الليل سابق النهار) .

---

(١) السيد حامد ، السابق ،

(٢) ابن كثير ، السابق ، النازعات ، الآية : ٣.

(٣) القاسمي : ، محاسن التأويل ،يس ، الآية :٤٠

(٤) ينظر: الحاج :يوسف ، موسوعة الإعجاز العلمي ، ص ٣٠٦

وقد فصّل الرازي في هذه المسألة ، وطرح تساؤلا افتراضياً ، يقول: " ما الفائدةُ في قَوْلِه تَعالى: ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أنْ تُدْرِكَ﴾ بصيغة الفعل ،وقَوْلِه: ﴿ولا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ﴾ بصيغة اسم الفاعل، ولَمْ يَقُلْ: ولا اللَّيْل يسبق، ولا قالَ: مُدْرِكَةُ القَمَرِ ؟ نَقُولُ: الحركة الأوليّة التي للشمس، ولا يُدْرَكُ بها القَمَرُ مُخْتَصَّةٌ بالشَّمس، فَجَعَلَها كالصّادرَة منها، وذُكِرَ بصيغة الفعْل ، لأنَّ صيغةَ الفعْل لا تُطْلَقُ عَلى مَن لا يَصْدُرُ منهُ الفعْلُ، فَلا يُقالُ: هو يَخيطُ، ولا يَكُونُ يَصْدُرُ منهُ الخياطَةُ " [١]، وأما حركة القمر ف " لَيْسَتْ مُخْتَصَّةً بكَوْكَبٍ منَ الكَواكب، بَل الكُلُّ فيها مُشْتَرِكَةٌ بسَبَب حَرَكَة فَلَكِه فَلَيْسَ ذَلكَ فَلَكًا لكَوْكَبٍ منَ الكَواكب، فالحَرَكَةُ لَيْسَتْ كالصّادرَة منهُ، فَأطْلَقَ اسْمَ الفاعلِ؛ لأنَّهُ لا يَسْتَلْزِمُ صُدُورَ الفعْل، يُقالُ: فُلانٌ خَيّاطٌ وإنْ لَمْ يَكُنْ خَيّاطًا" [٢]. وقَوْلُهُ تَعالى: ﴿وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ "يُحَقِّقُ ما ذَكَرْنا أيْ لِلْكُلِّ طُلُوعٌ وغُرُوبٌ في يَوْمٍ ولَيْلَةٍ لا يَسْبِقُ بَعْضُها بَعْضًا، بالنِّسْبَة إلى هَذه الحَرَكَة، وكُلُّ حَرَكَة في فَلَكٍ تَخُصُّهُ " [٣] .

ولشدة القوّة الدلاليّة للحركة في مجاز الآية تأوّل القرّاء الفقهاء فيها قراءة محتملة ،بجعل (لا) الانتهاء (لاءً) نافية،ف" قَرَأَ ابْنُ مَسْعُود، وَابْنُ عَبَّاس: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا) أَيْ: لَا قَرَارَ لَهَا وَلَا سُكُونَ، بَلْ هِيَ سَائِرَةٌ لَيْلًا وَنَهَارًا، لَا تَفْتُرُ وَلَا تَقِفُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ أَيْ: لَا يَفْتُرَانِ وَلَا يَقِفَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ،﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ أَيِ: الَّذِي لَا يخالَف وَلَا يُمانَع، ﴿الْعَلِيمِ﴾ بِجَمِيعِ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَات" [٤] ،قال الرازي:" فَخَلَقَ اللَّهُ تَعالى في جَمِيعِ الكَواكِبِ حَرَكَةً أُخْرى غَيْرَ حَرَكَةِ الشَّهْرِ والسَّنَة، وهي الدَّوْرَةُ اليَوْمِيَّةُ وبِهَذه الدَّوْرَة لا يَسْبِقُ كَوْكَبٌ كَوْكَبًا أصْلًا، لأنَّ كُلَّ كَوْكَبٍ منَ الكَواكِبِ إذا طَلَعَ غَرُبَ مُقابِلُهُ وكُلَّما تَقَدَّمَ كَوْكَبٌ إلى المَوْضِعِ الَّذي فِيه الكَوْكَبُ الآخَرُ بالنِّسْبَة إلَيْنا تَقَدَّمَ ذَلكَ الكَوْكَبُ "[٥] ،ففي هذه الآية " إشارة واضحة لمبدأ نسبية الحركة الذي اكتشفه البشر بعد ألف سنة من نزول القرآن الكريم ، فالإنسان قد يرى بعض الأشياء جامدة لا تتحرك بينما هي في حركة دائبة ولكن لا نشعر بها كما هو الحال مع ركاب الطائرة أو حركة السحاب المتصل في السماء"[٦]، فهي " في حالة جريان وسَبْحٍ في الكون، هذا ما كشف عنه علم الفلك الحديث بعد قرون من نزول

(١) الرازي ، السابق ، يس ، الآية ٤٠ .
(٢) السابق ، يس ، الآية ٤٠ .
(٣) السابق ، يس ، الآية ٤٠ .
(٤) ابن كثير ، السابق ، يس ،الآية : ٤٠ .
(٥) الرازي ، السابق ، يس ، الآية :٤٠.
(٦) العبّادي ، السابق ، الرابط نفسه .

القرآن الكريم" [١]وانتهى إلى " النتيجة الأهم لهذه القوانين، وهي أن الكون بناء على قانون الجاذبية لا يمكن أن يكون مستقرا إلا إذا كان كل جرم من أجرامه في حالة حركة مستمرة، ولو حدث أن توقف أي جرم عن الحركة لأنجذب فورا إلى أقرب الأجرام إليه وأندمج معه. ولمنع الأجرام السماوية من الإنهيار على بعضها البعض كان لزاما أن يدور بعضها حول بعض بحيث تتساوى قوة الجذب بينها مع قوة الطرد المركزي الناتجة عن حركتها الدائرية. ولذلك نجد أن الأقمار تدور حول كواكبها،والكواكب تدور حول نجومها،والنجوم تدور حول مركز المجرة في هذا الكون ، لكي لا تسقط على بعضها البعض" [٢]

ب – الدلالة على الحياة :

نلمح في صيغة الاستعارة ،وجريانها في الفعل المشتق (يسبحون) دلالة بلاغية ، ولفتة معنويّة ، تدل على (الحياة)،إذ أنّ الأصل في بناء الجملة، وإسناد الفعل لغير العقلاء أن يُقال (وكل في فلك يسبح) ولا يُقال يسبحون إلا إذا كان المخبر عنه ممّن يعقل ، وَمَذْهَبُ سِيبَوَيْهِ " أَنَّهُ لَمَّا أَخْبَرَ عَنْهُنَّ بِفِعْلِ مَنْ يَعْقِلُ وَجَعَلَهُنَّ فِي الطَّاعَةِ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَعْقِلُ، أَخْبَرَ عَنْهُنَّ بِالْوَاوِ وَالنُّونِ ، وَنَحْوَهُ قَالَ الْفَرَّاءُ" [٣]. ولو قيل : إن الآية بُنيت على الاستعارة فقط ،لكان لفظ يسبح كافياً،لأنه يرجعه إلى جنس مفرد من كلمة (كُلّ) ، ولكن لما استخدم أحد الأفعال الخمسة وهو(يسبحون) بالواو والنون، وجعل الفاعل فيها الضمير واو الجماعة الذي يعود لكل ما يدور في فلك الفضاء ، دلّ ذلك على أن مقصد الآية أنها كواكب حيّة ، سواء كانت حياةً حركيّة، أو حياةً إدراكيّة، أو حياة أخرى لايعلمها إلا الله سبحانه ، وذلك لورود شواهد قرآنية كثيرة دالة على هذا المعنى ، كقوله تعالى : (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ..) [الإسراء ٤٤]، وكقوله تعالى : (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ، والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدَانِ). [الرحمن ٥و٦]والشواهد على هذا لاحصر لها . ولكن تجدر الإشارة إلى إثارة الدلالة البلاغية في (يسبحون) إلى مسألة تأويليّة ، فقد " احتج بها ابن سينا على كون الكواكب أحياء ناطقة .." [٤] ، قالَ بعض الفلاسفة: "الكَواكِبُ أحْياءٌ بِدَلِيلِ أنَّهُ تَعالى"

---

(١) بوربـــاب ، محمـــد ، الإعجـــاز العلمـــي فـــي علـــوم الفـــضاء ، مقـــال إلكترونـــي ، ١٥ نـــوفمبر،٢٠٢٠ ،الـــرابط : https://bourbab.com/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B9%D8%AC%D8%A7%D8%B2-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D9%85%D9%8A-%D8%B9%D9%84%D9%88%D9%85-%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B6%D8%A7%D8%A1/%D9%81%D9%8A-%D8%B9%D9%84%D9%88%D9%85-%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B6%D8%A7%D8%A1/

(٢) العبّادي ، السابق ، الرابط نفسه .

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، سورة الأنبياء ،الآية :٣٣ .

(٤) السمين ، السابق يس ،الآية ٤٠ .

قالَ: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ وذَلِكَ لا يُطْلَقُ إلّا عَلى العاقِلِ " [١]،وأجيبوا على ذلك،بقول الرازي: "إنْ أرَدْتُمُ القَدْرَ الَّذي يَصِحُّ بِهِ التَّسْبِيحُ، فَنَقُولُ بِهِ ، لِأَنَّهُ ما مِن شَيْءٍ مِن هَذِهِ الأشْياءِ إلّا وهو يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ، وإنْ أرَدْتُمْ شَيْئًا آخَرَ فَلَمْ يَثْبُتْ ذَلِكَ " [٢]

والراجح أن المسألة والله أعلم متعلقة بالحياة الحركية الفلكية ،وأنها نُزّلتْ منزلة الحياة الروحيّة ،لذا عاد ضمير جمع العقلاء إليها مجازاً ، وقد يكون الضمير عائدا إلى ما في هذه الأجرام السماويّة من كائنات حيّة لا نعلم حقيقتها، وقد أشارت بعض النظريات الحديثة إلى احتمال وجود كائنات حية على بعض الكواكب . [٣] " ، فلقد "وجد العلماء أن الجزئيات العضويّة ، وهي أساس الحياة ، موجودة في الغبار الكوني بين النجوم والمجرات" [٤]

ولقوّة الطاقّة التخييليّة في السباحة الفضائية للكواكب والمجرات في هذه الآية ، واستعصائها على الدخول للعقول في تلك الحقبة الزمنية ، رأى بعض المفسرين أنه لا مجاز فيها ، وحملها على الظاهر ،فقال : " خلَق الله بحرًا دونَ السماء بمقدار ثلاث فراسخ، فهو مَوجٌ مكفوف، قائمٌ في الهواء بأمر الله، لا يقطُرُ منه قطرة، جارٍ في سُرْعة السَّهْم، تجري فيه الشمس والقمر والنجوم، فذلك قوله: ﴿كل في فلك يسبحون﴾. والفلك: دوران العجلة في لُجَّة غَمْرِ ذلك البحر" [٥] ، فلم تكن العقول تستوعب السباحة في غير ماء ، فتخيّل القدماء وجود ماء في الفضاء تسبح فيه الكواكب .

ويرى البعض أن الاشتقاق المجازي ليس قاصراً على الفعل (يسبحون) فحسب، بل كل الأفعال التي وردت في آية (يس) مستعارة ، ومنقولة من استعمالاتها الحقيقية في أصل اللغة إلى المجاز ، فقد تمت استعارة " الإدراك للشمس والسبق لليل والنهار ، ليبين ما هو مقرر في علم [الفلك] من دورات الشمس والقمر والأرض وتكوّن الليل والنهار، وجعل الشمس غير مدركة والقمر غير سابق ،لأن الشمس ..لا تدور إلا دورة لم تعرف مدتها حول شيء مجهول لنا بالكلية ولها أيضا دورة على محورها كالأرض ..أما القمر فله حركتان: إحداهما حول محوره وثانيتهما حول الأرض وكل منهما يتجه من المغرب إلى المشرق ويقطع مداره حول الأرض في تسعة وعشرين يوما ونصف تقريبا وهذا هو

(١) الرازي ، السابق ،يس ،الآية : ٤٠

(٢) السابق ، الآية نفسها .

(٣) النعيمي: حميد مجول ، البحث عن حضارات لأرضية في الكون ،مقال علمي ،مجلة الكون ،الاتحاد العربي لعلوم الفضاء والفلك الشارقة،٢٠١٤م،عدد ١ . ص ٦ .

(٤) السيد حامد ، السابق ، ص ٣٨ ن. نقلاً

(٥) السابق ، الآية :٤٠ .

المسمّى بالشهر القمري فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك ،لتباطؤ سيرها ، والقمر خليق بأن يوصف بالسبق ،لسرعة سيره " [١]

٣ – دلالة التمثيل :

ذهب كثير من المفسرين إلى أن الفَلك تمثيل للفلكة وهي أداة يتم نسج الغزل بها ، وهو تمثيل لما لا يتصوّره العقل ، ولا يقع تحت دائرة الحس ،بما يتصوره العقل ويقع تحت دائرة الحس من حرفهم اليدوية ،وصناعاتهم البدائية، وهو لفّ خيوط القماش بهذه الأداة ، وجرى على هذا المعنى أكثر المفسّرين،قَالَ ابْنُ عَبَّاس: "يَدُورُونَ كَمَا يَدُورُ الْمِغْزَلُ فِي الْفَلْكَةِ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: فَلَا يَدُورُ الْمِغْزَلُ إِلَّا بِالْفَلْكَةِ، وَلَا الْفَلْكَةُ إِلَّا بِالْمِغْزَلِ، كَذَلِكَ النُّجُومُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، لَا يَدُورُونَ إِلَّا بِهِ، وَلَا يَدُورُ إِلَّا بِهِنَّ" [٢] ، وقد يكون من نافلة القول أن يتم سرد كل ما قاله المفسرون في وجه الشبه بينهما، إلا أنّ الإجراء العلمي الصحيح يكمن في تحديد مآهية كلمة (فلك) ، هل هي اسم أم وصف؟

فقد رأى البعض أن الفلك صفة، لكل ما استدار في نظام . "وذلك أن الفلك في كلام العرب هو كل شيء دائر" ، "قَالَ قَتَادَةُ: الْفَلَكُ اسْتِدَارَةٌ فِي السَّمَاءِ تَدُورُ بِالنُّجُومِ مَعَ ثُبُوتِ السَّمَاءِ" [٣].

وردّ البعض بأن هذا "القول بعيد؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فيجب أن يكون الفلك اسمًا لما يتضمن النجوم وتجري فيه، ويكون مدوّرًا " [٤]

وعلى اعتبار القولين تتفرّع الدلالة ، فإن كان (الفلك) اسماً فلا مجاز فيه،بل اشتقاق ،ودلالة الاسم المشتق مأخوذة من دلالة مصدره، فهو جرم من الأجرام يوحي بالاستدارة، لدلالة المصدر، وإن كان وصفاً للمدار الفضائي ،فإنّ الدلالة تحمل معنى الاستعارة للحركة والدوران .

وهنا يطرح سؤال : إذا كان المراد من كلمة (فلك) الاسم ، فلماذا لم تأتِ مُعرّفة بالألف واللام (الفلَك)، فيتعيّن الاسم بالتعريف والتحديد ؟وللإجابة عن هذا السؤال ننظر لدلالة تنكير (فلك) ونقارن بينها ، وبين دلالتها لو وردت في غير كتاب الله معرفة محلاة بأل : (كل في الفلك يسبحون) ، وهل ستكون متسقة مع النظم ؟

---

(١) درويش :محي الدين ، يس ، الآية :٤٠.

(٢) ابن كثير، السابق ، سورة يس :الآية: ٤٠ .

(٣) الطبري ، السابق ، سورة الأنبياء ، الآية ٣٣.

(٤) القرطبي ، السابق ، سورة الأنبياء ، الآية ٣٣.

المتأمِّل المتذوِّق لا يجد لها من السلاسة في النظم ،أو الدلالة على المعنى ما للتنكير في قوله: (كل في فلك يسبحون) ، لأن كلمة فلك وإن ظهرت في قول الراجز : باتت تناجي الفلك الدوارا [1] ،إلا أنه لم يعهد لها ظهور في الاستخدام اللغوي القديم قبل نزول القرآن الكريم، فناسب تنكيرها معناها الجديد المتعلق بانتظام الكواكب والمجرّات والذرات في فلك ، وهذا الفلَك لم تكن معروفة هيئته ولا صفته ولا عمله ،ولولا دلالة مادته التي اشتق منها الفلكة ، لما تبادر للذهن الشكل الدائري للفلك والكون.

ووجهٌ آخر لاختيار التنكير على التعريف يتضح من مقارنة تردُّد مادة (فلك) في القرآن الكريم ،التي وردت للدلالة على السُفن أو المراكب التي يمتطيها الناس في البحار والأنهار في (٢٣) ثلاثة وعشرين موضعا، كلها جاءت بالتعريف في كل آية وردت فيها بهذا المعنى. [2]

ومع اشتراك الكلمتين في المادة: (ف ل ك) إلا أنهما تختلفان في الشكل ، لأن (فَلَك) على وزن (فَعَل) ،و (فُلْك) على وزن (فُعْل)، كما تختلفان في الوسم لأن (الفُلك) اسم ، وفَلَك :وصف على الأرجح ،ولذلك لم تأتِ كلمة (فَلَك) مُعرّفة في الآيتين الكريمتين ، وأتت كلمة (الفُلْك) مُعرّفة في كل استخداماتها في القرآن الكريم .

ولكن يظهر هنا سؤال: لماذا جاءت كلمة (فَلَك) دون غيرها من المرادفات لها ،أو المقاربات لدلالتها ،ك كلمة (مدار) أو (مسار) أو (مجال) أو نحوها من الكلمات؟

وللإجابة عن هذا السؤال نتأمل ماتحمله كلمة (فَلَك) من ومضةَ سياقيّة كاشفة عن سرّ من أسرار الكون ، تحيل مادتها إلى تخيّل العناصر المقابلة والمتشابهة في كلمة (الفُلْك) ،حيث الفضاء الرحيب الذي يشبه اتساع المحيط ،وحيث السماء الزرقاء التي تشبه مياه البحار، يؤكد هذا الاختيار اقترانها بالفعل (يسبحون) الذي يحيل الذهن، ويفتح الخيال للمشابهة العجيبة بين البحار والسماء :(ألم تر أن الفلك تجري في البحر ...) [لقمان ٣١]، وقوله : (ومن آيته الجوارِ في البحر كالأعلام) [الشورى ٣٢] ، فحركة الفُلك في الماء ،وحركة الفلَك في السماء ، وأيضاً أتى العدد (سبعة) في مواضع أكثرها مقترناً بالسماء: (..ثُمَّ استْوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَات..) [البقرة ٢٩]، وأحدها مقترناً بالبحر في قوله: (.. وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ..) [لقمان٢٧]. ، ومن هنا جاءت كلمة (فلَك) من المادة نفسها التي جاءت منها كلمة (الفُلْك) ، وهذا

(١) أبو عبيدة: معمر بن المثنى ،مجاز القرآن ، الأنبياء ،الآية : ٣٣.

(٢) في البقرة، الآية : ١٦٤ وفي الأعراف ٦٤ ويونس ٢٢ و ٧٣ هود ٣٧ و٣٨ وإبراهيم ٣٢ النحل ١٤ الاسراء ٦٦ الأنبياء٣٣ يس٤٠ والحج ٦٥ المؤمنون ٢٢ و٢٧ و٢٨ والشعراء ١١٩ والعنكبوت ٦٥ والروم ٤٦ ولقمان ٣١ وفاطر ١٢ ويس ٤١ والصافات ١٤ وغافر ٨٠ والزخرف ١٢ والجاثية ١٢

مادفع بعض اللغويين للاعتقاد بإن " الفَلَك موْج مَكفوف يَجرين فِيه"[١] . مما يؤكد دِقّة التعبير القرآني الذي يغوص في بحار الدُّرر الثمينة في عمق دلالاتها المتنوّعة ، وإيحاءاتها المتعددة التي تخلب الألباب .

(١) الفراء:يحي بن زياد ، معاني القرآن ، الأنبياء : الآية ٣٣ .

الخاتمة :

اكتشف هذا البحث ضروباً من الدلالات البلاغيّة المتنوّعة في آية (كل في فلك يسبحون)، كدلالة : الوصل والفصل، والتعريف والتنكير ، والتعميم والتخصيص، والتقديم والتأخير، والإيجاز والتركيز ،والمزاوجة والمجانسة، والمطابقة والمقابلة ، والإيحاء والتورية ،والمجاز والاستعارة ، والتمثيل والتخييل .

ونفى البحث أن يكون البديع اللفظي المتمثل في جناس القلب مجرد حلية لفظية أولع بتتبّعها البلاغيون ، لأنه يحمل دلالة موحية بالحركة والدوران ،والعودة على البدء ، والاطراد العكسي .

ومع هذا يظل البحث قاصراً عن الإلمام بكل أسرار الإعجاز في الآية الكريمة محطّ الدراسة ، لكنه يظل محاولة مركّزة ، لإضافات بسيطة للحقل المعرفي في دلالة البلاغة القرآنية ، لأنها ربطت بين دلالات البلاغة ونظريات الكون المعاصرة ، وحاولت أن تثبت بدلالات النص أن الآية الكريمة سبقت المكتشفات العلميّة الحديثة في مجال علم الفلك ، فقد دّلت على :

- استدارة الكون، ودوران الفلك .
- الحركة المستمرة للكواكب والمجرات .
- انعدام الجاذبيّة خارج المجال الجوي للكرة الأرضيّة.
- تناقص الأوكسجين في الفضاء الخارجي.
- الحياة الكونيّة المنتظمة .
- عودة النهايات للبدايات .

ويوصي البحث بأهميّة مراجعة كل الدلالات البلاغيّة في القرآن العظيم ، للاستضاءة بها في العلوم المختلفة.

المصادر :

القرآن العظيم.

المراجع :

- أبو السعود : محمد بن محمد ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، دار إحياء التراث العربيّ ، بيروت ، لا: ت .
- أبو عبيدة : معمر بن المثنّى ، مجاز القرآن ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦١م.
- البغوي: الحسين بن مسعود ، معالم التنزيل في تفسير القرآن ، ت: محمد النمر وآخرون ، دار طيبة ،المدينة المنورة ، ١٩٩٧ م.
- الألوسي : شهاب الدين محمود ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، ت: علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلميّة ،بيروت ، ١٩٩٥م.
- ابن عادل: سراج الدين عمر، اللباب في علوم الكتاب ، ت: عادل أحمد وعلي معوض، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ١٩٩٨م.
- ابن عاشور :محمّد الطاهر ، التحرير والتنوير ، الدار التونسية ، تونس ، ١٩٨٤م.
- ابن منظور: محمّد بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٤م.
- الحاج :يوسف ، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ،ابن حجر، لا:م ، ٢٠٠٣م.
- درويش: محيّ الدين ، إعراب القرآن وبيانه ،دار ابن كثير ، دمشق ، ١٩٩٥م.
- الرازي : فخر الدين ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٥ م .
- الزمخشري ، محمود بن عمر ، ت : محمد شاهين ، دار الكتب العلميّة ،بيروت، ١٩٩٥، ط ١ .
- السمرقندي:نصر بن محمّد ، بحر العلوم ، لا. د ، لا. ت .
- السمين الحلبي:أحمد بن يوسف ،الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، ت: أحمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، لا: ط ، لا: ت .
- شاكر : عبدالقادر ، علم الأصوات العربيّة ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ٢٠١٢ م.
- صافي: محمود، الجدول في إعراب القرآن ، دار الرشيد ، دمشق ، ١٩٩٥م .
- الطبري : ابن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، دار التربيّة والتراث ،مكّة ، لا : ت .

- العسكري: أبو هلال ، الصناعتين ، ت: علي البجاوي وأبو الفضل إبـراهيم ، المكتبـة العصريّة ، بيروت ، ١٩٩٨ م.
- الفرّاء :يحي بن زياد ، معاني القرآن ،ت: أحمد النجـاتي وآخـرون ، دار المـصرية ، القاهرة ، ط ١ ، لا: ت.
- القرطبي : محمد بن أحمد ، الجامع لأحكام القرآن ، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ،دار الكتب المصريّة ، القاهرة ، ١٩٦٤م. ط٢.
- القزويني – ابن يعقوب المغربي – بهاء الدين السبكي ، شروح التلخيص ، دار الكتـب العلميّة ،بيروت ، لا: ت.
- الماوردي: عليّ بن محمّد ، النكت والعيون ت: السيد ابـن عبدالمقـصود ، دار الكتـب العلميّة ، بيروت ، لا: ت.
- مكّيّ : أبومحمد بن أبي طالب ، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ،ت: الشاهد البوشيخي ، كلية الشريعة ، جامعة الشارقة ، ٢٠٠٨م.
- النّحّاس: أبو جعفر ، إعراب القرآن ، دار الكتب العلميّة ،بيروت ، ٢٠٠١م.
- يوسف: عبدالرزاق ، المكّي والمدنيّ في القرآن الكـريم ،دار ابـن عفّـان ، الجيـزة ، ١٩٩٩م.

المجلات والدوريات:

مقال : البحث عن حضارات لا أرضية في الكون ،مقال علمي ، د.حميد النعيمي مجلة الكـون ،الاتحاد العربي لعلوم الفضاء والفلك الشارقة،٢٠١٤م،عدد ١

مقال :تأملات إيمانية في سورة يس ، موسوعة الاعجاز العلمي في القرآن والـسنة، ، رابطـة العالم الإسلامي ، ٢٠١٢ .

مقال :الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد بورباب ،جريدة الرابطة ، المغرب ،٢٠٠٩ .

المواقع الإلكترونيّة :

مقال : (وكل في فلك يسبحون الإعجاز العلمي) ، منصور العبادي ، الموقع الالكتروني للجمعية الأردنية لاعجاز القران والسنة ، رابط المقال :

https://eajazjo.org/%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%A٥%D٨%B٩%D٨%AC%D٨%A٧%D٨%B٢-%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٩%٨٢%D٨%B١%D٨%A٢%D٩%٨٦%D٩%٨A/%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%A٥%D٨%B٩%D٨%AC%D٨%A٧%D٨%B٢-%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%B٩%D٩%٨٤%D٩%٨٥%D٩%٨A/%D٩%٨٨%D٩%٨٣%D٩%٨٤-

%D٩%٨١%D٩%٨A-%D٩%٨١%D٩%٨٤%D٩%٨٣-

%D٩%٨A%D٨%B٣%D٨%A٨%D٨%AD%D٩%٨٨%D٩%٨٦

مقال : ظلمة الكون والمادة السوداء د. حسني حمدان الدسوقي ،تاريخ الإضافة:١٣/٧/٢٠١٣ م.

رابط الموضوع:

https://www.alukah.net/sharia/٠/٥٧٢٥٦/%D٨%B٨%D٩%٨٤%D٩%٨٥%D٨%A٩-

%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٩%٨٣%D٩%٨٨%D٩%٨٦-

%D٩%٨٨%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٩%٨٥%D٨%A٧%D٨%AF%D٨%A٩-

%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%B٣%D٩%٨٨%D٨%AF%D٨%A٧%D٨%A١/#ixzz٨IRcuqnPD

مقال : الإعجاز العلمي في علوم الفضاء ، محمد بورباب ، ١٥ نوفمبر،٢٠٢٠ ،الرابط :

https://bourbab.com/%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%A٥%D٨%B٩%D٨%AC%D٨%A٧%D٨%B٢-

%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%B٩%D٩%٨٤%D٩%٨٥%D٩%٨A-%D٩%٨١%D٩%٨A-

%D٨%B٩%D٩%٨٤%D٩%٨٨%D٩%٨٥-%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٩%٨١%D٨%B٦%D٨%A٧%D٨%A١/